الباب الثاني

مع النـــاس

تمهيد

الباب الثاني **مع الناس** مُكَوَّن من أربعة فصول، وكل فصل يتكون من أربعة موضوعات، يخدم كل موضوع منها محورًا تربويًّا متميزًا، وحتى لا تملّ من التشابه، أو يستحوذ عليك محور واحد لفترة طويلة فتفتر، أو يتحول الأمر إلى مجرد استرادة علمية دون تحقيق للجانب الوجداني أو للترجمة السلوكية المقصودة؛ كان تقسيم المحور الواحد على الفصول الأربعة مقصودًا، فمَن تناول الباب هذا الترتيب، سار في المحاور كلها بتوازن ومُخطى ثابتة، وأعان نفسه على نفسه بالتنوع، وتحققت بسهولة الجوانب الوجدانية والعملية.

ومَن أراد بعد ذلك تتبع المحور الواحد عبر الفصول الأربعة، فله ما أراد، فبإضافة كل موضوع إلى نظيره في باقي الفصول، يكتمل المحور في جانبيه العلمي والمعرفي.

فالمحور الأول يعتني ببعض الأصول التي يُفهّم الإسلام في إطارها، فيتناول موضوع البدع من حيث: مراتبها، وأحكامها، ودواعيها، وفقه محاربتها والقضاء عليها، كما يوضح بعض أنواع البدع المختلف في حكمها الشرعي وهي: البدع الإضافية، والتركية، والالتزام في العادات المطلقة ويعرض أيضًا لموضوع أولياء الله الصالحين وضرورة حبهم وتقديرهم، وثبوت الكرامات لهم مع الاعتقاد بأنهم لا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا، كما يحذر من الوقوع في بعض ذرائع الشرك مثل الاستعانة بالمقبورين أيًّا كانوا، وندائهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم، والنذر لهم، وتشييد القبور، وسترها، وإضاءتها، والتمسح بها، والحلف بغير الله.

والمحور الثاني يحرك القارئ للمبادرة إلى مهاداة من يحبهم تعبيرًا عما في قلبه من حب لهم، ويدعو أيضًا للعمل من أجل الحفاظ على نعمة الصحة من خلال اتخاذ التدابير الوقائية، وبالمسارعة إلى طلب العلاج عند بداية الإصابة بمرض ما، ويحث كذلك على البعد عن الإسراف في المأكل بكل أشكالها، ثم يرشدنا إلى التخلق بخلق من أخلاق الإسلام الرفيعة ألا وهو التعفف والتنزه عن سؤال الآخرين

والمحور الثالث يلفت الانتباه إلى ضرورة أن يصحي المسلم بعض وقته وجهده لدعوة غيره إلى الخير، ويحذر من الاستجابة لوسوسة الشيطان التي تؤدي بمن من يستجيب لها إلى القعود عن طاعة الله تعالى، ويبه إلى ضرورة أن يستثمر المرء قدراته وهواياته فيما يعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع المادي والمعنوي، كذلك يحثنا على العمل على تنمية عقولنا من خلال السعي والجد في طلب العلم

أما المحور الرابع فيعتني بالرقائق، من خلال تدبر الموت وأحوال الآخرة، فتأمل موقف التجرد بين يدي العاسل من كل زينة، أو قوة مادية أو معنوية، أو إرادة بعد الموت، وتعرف على أنواع الشفاعات وشروطها يوم القيامة، ثم تأمل في بعض أصناف العذاب في النار - والعياذ بالله - لتجتنب أسبابها، وتتعرف على بعض ألوان النعيم في الجنة، لتستحث الخطى إليها

*****

الفصل الأول

١- صيانة الشريعة

٢- بريد الحب

٣- بيعة مع الله

٤- طهر ورداء

صيانة الشريعة

لقد كانت آية المائدة الدالة على تمام الدين فارقة في تاريخ التشريع الإسلامي، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[1]، فبعد تمام الدين وموت رسول الله ﷺ لا يحق لأي أحد أن يريد في دين الله أو ينقص منه، أما النقص منه فقد أخبرنا الله تعالى في قوله حال شأنه منكراً على من يعطل بعض أحكام الدين ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[2]، ومن أمثلة النقصان: تعطيل الجهاد، وتعطيل الحكم بما أنزل الله، أما من زاد فيه فقد ضاهى الله في التشريع، ونصب نفسه شريكاً له، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

وقد أخبرنا الله عن حالهم بقوله جل جلاله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[3] ومن أمثلتها الرهبنة والطواف حول الأضرحة وما إلى ذلك

حقيقة البدعة

والبدعة في حقيقتها "ما أُحدث بعد الرسالة على سبيل التقرب إلى الله، ولم يكن قد فعلها الرسول ﷺ ولا أمر بها ولا أقرها، ولا فعلها الصحابة"[4] وتسمى "البدعة" و"المحدث"، وهذا المفهوم للبدعة هو ما ورد

١- من الآية ٣ من سوره المائدة

٢- من الآية ٨٥ من سورة البقره

٣- من الآية ٢١ من سورة الشورى

٤- جمعة أمين، فهم الإسلام في ظلال الاصول العشرين، ص١٦٩، وفي تعريف البدعة عند العلماء انظر -

النهي عنه في الشرع، قال الله تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[1]، وقال جل جلاله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال "مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ" [رواه مسلم، الحديث ٣٢٤٣]، وفي رواية: "مَنْ احْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ" [رواه مسلم، الحديث ٣٢٤٢] وعن العرباض بن سارية ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ"[رواه أبو داود، من الحديث ٣٩٩١] فالبدعة المنهي عنها لابد أن يتحقق فيها الآتي

١-أن تكون من الأمور التي يفعلها العباد على أنها من العادات.

٢-يتقربون بها إلى الله تعالى

٣-لم يكن لها أصل في الدين[3]

وهذا ما يسميه العلماء بـ "البدعة الأصلية" أي التي لا أصل لها في الدين، أما التي لها أصل في الدين فسيأتي الحديث عنها.

- أ- أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، ج١، ص (٥-٥١) ب- أبو شامة ، الباعث على إنكار البدع والحوادث ، ص (٨٦-٨٩) ج- الموسوعه الفقهية الكويتية ، ج١، ص (٢١-٢٣)

١- من الآيه ٥٤ من سورة النور

٢- الآية ٦٣ من سورة النور

٣- جمعة أمين ، فهم الإسلام، ص١٧٠

الابتداع الحسن:

أما الابتداع الحسن في مقتضيات الحياة والأمور الدنيوية فهو من التطور المطلوب كي يلبي حاجة العصر الذي نعيشه، حتى لا نتخلف عن الركب ولا نكون في عزلة عن الدنيا، فملكة الاختراع والإبداع لها ميدان يستطيع الانطلاق فيه ولا حجر عليه، فلدينا شئون الدنيا، وآفاق الحياة تعالجها وتفترض فيها وتبتدع ما شاءت، وعلينا فيه الإجادة والإفادة، وكفانا قدوة تلك البدعة التي ابتدعها سلمان الفارسي فأنقذت المسلمين يوم الخندق من خطر محدق هم ألا وهي حفر الخندق

زوائد ضارة:

ومن الآثار الضارة للابتداع في دين الله أن مشئ هذه البدعة يعطي نفسه منزلة ليست له، فإن المشرّع الفرد لعباده جميعاً هو الله الواحد الفرد الصمد، فتلك نزعة إلى الألوهية يعدو فيها الإنسان قدره ويجاور حده، والذين يختلقون هذه المحدثات يحملون وزر ضلالهم الخاص وتضليل الذين يخدعون هم ويستجيبون لهم، وفي الحديث " **وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا**"

[رواه ابن ماجة، من الحديث ١٩٩]

والذين يشتغلون بالمحدَثات يضيعون حقائق الإسلام الصحيح وفرائضه المحكمة بقدر ما أحدثوه من بدع.

فليس خطر البدعة أنها وسع يثوب وجه الحقيقة فحسب، بل هي

مرض يفقد الدين عافيته ويقص قلبه وأطرافه[1]، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه "الاقتصاد في السُنة خير من الاجتهاد في البدعة"، وقال "ما أحدث الناس بدعة إلا أضاعوا مثلها من السنة"، ولذا يمكن القول أن البدعة والابتداع تقوض صرح الشريعة

مراتب وأحكام:

والابتداع في الدين قد يكون في العقائد وقد يكون في العادات، أما البدعة في العقيدة فقد اتفق العلماء على أنها محرمة، وقد تتدرج إلى أن تصل إلى الكفر. فأما التي تصل إلى الكفر فهي التي تخالف معلوماً من الدين بالضرورة كبدعة الجاهليين التي نعى عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾[2] وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾[3]، وحددوا ضابطاً للبدعة المكفرة وهي أن يتفق جميع العلماء على أن هذه البدعة كفر صراح لا شبهة فيه

أما البدعة في العادات، فمنها ما يكون حرامًا ومعصية ومنها ما يكون مكروهًا، ومثال الحرام بدعة التبتل والصيام قائمًا، والخصاء لقطع الشهوة في الجماع والتفرغ للعبادة، ودلك لما جاء في حديث الرهط الذين فعلوا دلك فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ

١- محمد العزالي ، السنة في الإسلام ، ص (٨١-٨٢) بتصرف

٢- من الآية ١٠٣ من سورة المائدة

٣- من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام

نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ "أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" [رواه البخاري، الحديث ٤٦٧٥].

ومثال البدع المكروهة في العادات. ذكر السلاطين في خطبة الجمعة للتعظيم ورخرفة المساجد والمصاحف [1]

دواعي البدعة

دواعي البدعة وأسبابها وبواعثها كثيرة ومتعددة يصعب حصرها، لأنها تتحدد وتتنوع حسب الأحوال والأزمنة والأمكنة والأشخاص ومع ذلك فمن الممكن إرجاع الدواعي والأسباب إلى ما يأتي

١- الجهل باللغة العربية:

فقد أنزل الله ﷻ القرآن الكريم عربياً لا عجمة فيه بمعنى أنه جار في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب، وقد أخبر الله تعالى بذلك فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[2] وقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[3]. ومن هذا يُعلم أن الشريعة لا تُفهم إلا إذا فُهم اللسان العربي لقوله تعالى. ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[4] والإخلال في ذلك قد يؤدي إلى البدعة[1]

١- الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٨، ص (٢٦-٢٧)

٢- من الآية ٢ من سورة يوسف

٣- من الآية ٢٨ من سورة الزمر

٤- من الآية ٣٧ من سورة الرعد

٢- الجهل بالسنة

والجهل بالسنة يعني أمرين: الأول جهل الناس بأصل السنة، والثاني جهلهم بالصحيح من غيره فيختلط عليهم الأمر، أما جهلهم بالسنة الصحيحة فيجعلهم يأخذون بالأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ، وقد وردت الآثار من القرآن والسنة تنهى عن ذلك قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[٢] وقال ﷺ "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" [رواه البخاري، من الحديث ٩ ١٢]

٣- حُسْن الظنّ بالعقل

ويتأتى هذا من جهة أن المبتدع يعتمد على عقله فيحرّه عقله القاصر إلى أشياء بعيدة عن الصراط المستقيم؛ وهذا لأن الله جعل للعقل في إدراكه حدًّا ينتهي إليه ولا يتعداه من ناحية الكمّ ومن ناحية الكيف، أما علم الله سبحانه فلا يتناهى، والمتناهي — وهو عقل الإنسان - لا يساوي ما لا يتناهى[٣] - وهو علم الله - فلا يجوز إذن لامرئ مهما اتسع علمه ونصحت تجربته أن يستحسن عملاً على أنه من عند الله رب العالمين، فهذا هو الافتراء بعينه مهما كانت نية المستحسن[٤]

٤- اتباع الهوى

ويطلق الهوى على ميل النفس وانجرافها نحو الشيء ثم غلب استعماله في الميل المذموم والانحراف السيئ، ونُسبت البدع إلى الأهواء وسمي أصحابها

١- الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٨، ص٢٧

٢- من الآية ٣ من سورة الإسراء

٣- الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٨، ص٣٠

٤- محمد العزالي، ليس من الإسلام، ص٨٤

بأهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ثم حملوا الأدلة الشرعية مطوراً فيها من وراء ذلك

محاربة البدع:

وأول درجات المحاربة تكون بالوقاية من الوقوع فيها أصلاً وذلك بفهم الشرع على أساليب العربية كما أُنزل ونشر السُنة الصحيحة وإحيائها والتجرد من تحسين الظن بالعقل ومن الأهواء، فالوقاية خير من العلاج، وواجب على حملة الشريعة حماية الأصيل من الشرع وصيانته من الدخيل، وهنا يجب الإنكار على هذه البدع بالتصدي لها لإزالتها عملاً فإن لم يستطع فباللسان فإن لم يستطع فبإنكارها بالقلب

فقه الإنكار:

ولكن يلزم على المتصدي لإزالة منكر المبتدعات أن يكون على فقه ونظر عظيم لما يمارسه، فعليه أن يكون عالماً بالمنكر الواجب إزالته-وهي البدع هنا- فيُعلم البدع التي لا أصل لها في الدين من التي لها أصل، والبدع المتفق على بدعيتها من المختلف فيها، ثم ينظر إلى مآل ما يفعله من الإنكار هل سيؤدى إلى ما هو شر من المنكر القائم، يقول الإمام ابن القيم. "إنكار المنكر أربع درجات. الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة. أن يخلفه ما هو شر منه، فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة"[1]،

١- ابن قيم الجوزية ، إعلام الموقعين، ج٣، ص٥ نقلاً عن نظرات في رسالة التعاليم، ص١١٨

وهذا الحكم على مآل ومستقبل ما يفعله يتطلب منه دراسة المجتمع ونفسيته وعقليته حتى يتوقع نتيجة ما يمارسه من إنكار فيقدم أو يحجم وينصرف إلى ما هو أولى، والله أعلم

قاعدة كلية

ولهذا وضع العلماء لما نحن بصدد الحديث عنه قاعدة كلية لحقيقة البدعة الأصلية، وحكمها وكيفية علاجها فقالوا: **"وكل بدعة في دين الله لا أصل لها ـــ استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ـــ ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شرٌّ منها"**[1].

وفي النهاية فلنسأل أنفسنا كم من البدع الأصلية أنكرناها بفقه وعن علم؟ وكم سنة أحييناها ؟

*****

١ – حسن البنا ، مجموعة الرسائل، رسالة التعاليم، ص٣٥٨، الأصل ١١

بريد الحب

ليس في القلب عاطفة يمكن أن تجعل المرء سعيداً مرحاً يكاد يرفرف بجناحين ويغرد شادياً مثل عاطفة الحب، فإنها إذا تمكنت من القلب تجاه أحد حملت صاحبه على صنع المعجزات، واستسهال الصعاب، والاستخفاف بالمشقات غير متعصب ولا متشكٍّ ولعل الحكمة التي تقول "إذا لم تجد من تحب فأحب من تجد"أكبر دليل على صعوبة احتمال الحياة بغير من نحبهم ويحبوننا، كما تُقرر-بوضوح- أهمية وجود مشاعر الحب لاستكمال مسيرة الحياة، وما يمكن أن ينتج عن غيابها من ضيق وعسر وألم، إنه الحب الذي تبقى النفوس بدونه تحلق حائمة هائمة حتى تحط على أشجاره، وتتفيأ ظلاله، إنه الحب الذي تغيب بغيابه معاني الحياة لتصير غير مستحقة للوجود حتى إنه إذا انحرف قوم عن جادة الصواب وأراد الله أن يستبدل هؤلاء القوم آخرين جعل أول شرائطه فيمن يأتون من بعدهم أن يحملوا قلوبًا تنبض بالحب، وأفضل الحب ما كان لله خالصًا، يقول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ[1]﴾.

حتى في عزهم وتذللهم يحركهم الحب لله ثم للمؤمنين. كما أن الله مدح بهذه العاطفة قومًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[2]

١- من الآية ٥٤ من سورة المائدة

٢- من الآية ٩ من سورة الحشر

أوثق عرى الإيمان:

ولما كان الوصول إلى شاطئ الوحدة والألفة من مستلزمات قوة المجتمع وتماسك

أركانه، وكان الحسر إلى بلوغه المحة المتبادلة من أعماق الشعور، لا المتكلفة الزائلة مثل القشور، لا غرو إذن أن محمد النبي ﷺ يعد حب المؤمنين بعضهم بعضًا أقوى روابط الإيمان وأثبتها، فعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال "**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**" [رواه الطبراني في الكبير]

حريص على الحب

لما كان الحب في الله أوثق عرى الإيمان، وأصدقها دلالة على عمق الروابط الإيمانية بين المؤمنين، فإنه يمثل مرحلة متقدمة تسبقها مراحل ومعانٍ أخرى في مقدمتها الإخلاص لله ثم لمن تحبهم في الله، لذا كان حرص المؤمن على دوام هذه المحبة دليل كمال وبقاء يستحق لأجله أفضل الجزاء، فعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال "**ما من رجلين تحابا في الله يظهر الغيب إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبًا لصاحبه**" [رواه الطبراني في الأوسط]. إنها محبة تأصلت وترسخت فكانت في المشهد مثلما هي في المغيب فاستحقت -بسموها- أن تنال محبة الله التي تحفظهما في أشد اللحظات حرجًا وأحلك الأوقات عسرة وذلك حين يظلهما الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه**". وذكر منهم "**وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ**" [رواه البخاري، من الحديث ٦٢٠]

أما الشرف الأكبر والفوز الأعظم فيتجلى يوم القيامة في أبهى صوره حيث يجلسهم الله على منابر من نور، فعن معاذ قال سمعت رسول الله ﷺ قال قال الله ﷻ "الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ"[رواه الترمذي، الحديث ٢٣١٢].

إعلان عمّا في القلب:

وكثيراً ما يشعر القلب وتحيش النفس بعواطف جميلة عذبة رقراقة تجاه بعض الأفراد غير أنها تبقى حبيسة صدر صاحبها، وربما لو علمها هؤلاء لتجاوبوا معها، وتأثروا بها غاية التأثر، فتزداد المحبة بينهم عمقاً، والألفة بينهم نماء والنبي ﷺ كان يعلّم أصحابه أن أول أصول الحب في الله أن تخبر من تحب بمحبتك له، فعن المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ قال. "إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ"[رواه أبو داود، من الحديث ٤٤٥٩]. ولكن المحبة الصادقة لا تقف عند حد شعور القلب، وإنما تفيض معانيها على سائر الجوارح، وتظهر معالمها في التصرفات والسلوك؛ فتجد المحب لأخيه في الله يحرص على جلب النفع له، ودفع الأذى عنه، والنصح بالخير، والابتسام عند لقائه، والتعبير عن سعادته برؤيته، ومهاداته ولو بأقل الأشياء، وحفظ سره، والتغاضي عن زلاته، والسؤال عنه عند غيابه، وبدائه بأحب أسمائه، والتلطف معه، وحسن الاستماع إليه، والحديث عنه في غيابه بما يحب في غير كذب، لا تبتغي بذلك مكافأة أو أجراً أو ثناءً إلا من الله الذي أحسنه فيه، فإنه سبحانه يجازي بالإحسان إحساناً، قال تعالى. ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ﴾[1].

١- الآية ٦٠ من سورة الرحمن

شرحٌ للصدور:

بينما رجل يجلس بين أصحابه إذ جاءته جاريته تحمل إليه عــودًا مــن الريحان وتقول أعجبني، فأحببت أن أهديه إليك، فتناوله منها، ثم شمّه فقال: اذهبي، فأنت حرة. فلامه جلساؤه قائلين: كيف تكافئها على عــود مــن الريحان بالعتق وقد اشتريتها بكذا وكذا؟ فابتسم وقال: لم أجد لانــشراح صدري بهديتها مكافأة أقــل من العتق.

أرأيت أثر الهدية في انشراح الصدور، وارتفاع المقدار من رق العبودية لمرتبة الأحرار.

تأليف للقلــوب

فمن أراد أن يحظى بمحبة الإخوان والجيران، ويدفع نقمة الكارهين له، الساخطين عليه، فعليه بالهدية، كما أشار إلى ذلك الفضل بن سهل. مــا استرضي الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سُــلِبت الــسخائم[1]، ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا تُوُقي المحذور بمثل الهدية[2]. هكــذا جُبِلت[3] القلوب على حبِّ مَن أحسن إليها، وبغض مَن أساء إليها[4]. فحريٌّ بأهل الحق وبأصحاب الدعوات السامية أن يستثمروا كريم معاني الهديــة وجليل آثارها في تأليف القلوب وتقوية الصفوف المؤمنة، إضــافة إلى مــا تضفيه من بهجة في نفوس أحبابنا، وتغمرنا بفيوض محبتهم، فقد قالــت أم

١- أي: الأحقاد والضغائن
٢- المستطرف ٢/٤٥
٣-جُبِلت: فُطرت وطبعت
٤- المستطرف ٢/٤٧

حكيم الخزاعية سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**تهادوا فإن الهدية تضعّف الحب، وتذهب بعوائل الصدر**" [رواه الطبراني في الكبير] وما أجملها حين تُقَدَّمُ مع ابتسامةٍ، ورقعةٍ صغيرة تُعرِبُ[1] فيها عن صادق محبتك

إزالة ركام الاحتكاك:

في زحام العمل ومشكلاته، وفي مناقشات المرء ومحاوراته، وفي انشغاله وحماسته لتحقيق مطلوباته، وفي حرصه وغيرته على حسن أداء أعماله، وفي غمرة الموازنة والمقارنة بين حقوقه وواجباته، قد تنفلت الأعصاب وكذلك الألسنة، وتتجمع لدى المحيطين بنا بعض الرواسب النفسية من تكرار هذه الأمور، فإذا ما أُهملت تحولت إلى ركام من المشاعر غير الطيبة تأتي بعواقب سيئة يصعب على الكثيرين بعد ذلك تلافيها أو علاجها، بينما كان بالإمكان- ولا يزال- تداركها بأشياء يسيرة مثل الهدايا، فقد قيل: في نثر المهاداة طيُّ المعاداة[2] فكيف بمن هم في الأصل ليسوا أعداءنا؟ وبهذه الهدايا البسيطة يتحول هذا الركام الناجم عن الاحتكاك الطبيعي في مسيرة الحياة إلى أرض خصبة تنبت زهرات المحبة في القلوب، والألفة بين الأرواح

تناسب وتنوع:

يسعد المحب حين يقدم هديته فتنال الإعجاب والاستحسان من المُهدَى إليه، ومن أهم الأمور في الهدية أن تتناسب مع المُهدَى إليه، ويَجمل بالهدية أن تكون في مناسبة طيبة، أو بعد انتهاء مشكلة، وليس المهم في الهدية

١- تُعرب: تُظهر وتبين
٢- المستطرف ٢/٤٥

قيمتها وإنما فيما تحمله من عواطف ومشاعر مُقدِّمها، فإنه كلما زادت هذه المشاعر وكانت صادقة ضاعفت من قيمة الهدية والسرور بها، ولا ننسى أن ندعو للمُهدَى إليه بخير أيضًا فذلك أدعَى لاكتمال سعادته بالهدية

وإذا كانت الهدية الأولى تمثل طرقًا على باب القلب فإن الثانية والثالثة تجعلانك تقيم داخله باطمئنان، فإن زدت تربعت على عرشه وتملكت الشغاف والسويداء. فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال "تهادوا تحابوا"[رواه البيهقي في السنن الكبرى]

*****

بيعة مع الله

قد يعجب كثير من الناس لما يرون من تضحيات بعض المؤمنين في سبيل الإسلام، وإعلاء كلمة التوحيد، مسترخصين في ذلك السبيل الأرواح والأبدان والكثير والقليل، ولا يدرك هؤلاء القاعدون الحاملون أن المؤمن الكيس لا يضحي بمتع الحياة ولذائذها إلا لأنه يفكر بعقل التاجر الذكي الذي يوازن بين صفقتين، وأنه قد يقبل راضياً بالخسارة القريبة اليسيرة ليربح ويكسب أخرى أثمن وأخود وأفضل، لأنه يرى أن التضحية بالحياة والمال والراحة ليظفر بالنعيم الخالد العالي، ولأنه فهم عن الله مراده في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1] فعلم أن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين، يعقد به المسلم بيعة مع الله، لا يبقى بعدها شيء في نفسه ولا ماله يختاره دون الله لتكون كلمة الله هي العليا، فمن أمضى الصفقة وقدم الثمن فهو المؤمن"[2].

القدوة والمثل:

وكذلك كان الرعيل الأول من المؤمنين حين أدركوا أن شجرة الإيمان والدعوة لا تسقيها إلا التضحيات المخلصة التي تنبت جذورها، وتعلو بأغصانها، وتفيض بثمارها، وتمد ظلالها الوارفة إلى الناس كافة ليصووا تحت أفيائها الرحيبة، مثلما أدركوا أنه بغير هذه التضحيات تُجتث

١- من الآية ١١١ من سورة التوبة

٢- الظلال، ج ٣، ص ١٧١٣-١٧١٦ بتصرف

حدورها، وتجف أوراقها، وتذبل نضارتها، وتتقلص ظلالها، فلما تبينوا ذلك وفطنوا إليه كانت كلمات القرآن ما تلبث أن تطرق مسامعهم حتى تتحول واقعًا مرئيًّا ملموساً، فلا يتلقونها لمجرد التأمل في بلاغة الألفاظ وسحر البيان بقدر ما يتلقونها للعمل المباشر بها، وتحويلها إلى حركة منظورة، مضحين في سبيل ذلك بكل ما يملكون، لا يريدون بذلك مدحًا ولا جزاء من البشر، إنما يطمعون في رضا خالقهم آملين في حسن مثوبته، وجزيل فضله، فإنه سبحانه ذو الفضل العظيم، مثلما يروي لنا الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أمر ببناء المسجد، وقال: "**يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا قَالُوا لا وَاللَّهِ لا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلا إِلَى اللَّهِ**"[رواه البخاري، من الحديث ٤١]

وبأمثال هؤلاء الذين لم يبخلوا عن دعوة ربهم بشيء من متاع الدنيا انتصر الإسلام، وارتفعت رايته، وبمثل هذه الصفات يعود مجده

جهد مشكور مأجور:

ويحسب بعض الناس أن التضحية في الإسلام مقصورة على الخروج للجهاد أو إنفاق الأموال، وكأن دعوة الله ليست إلا اندفاعة لقتال أو مشروعاً يعوزه[١] المال، والحق أن التضحية بالنفس والمال من أعظم التضحيات، ولكن الله أخذ علينا البيعة على أن نهب النفس والنفيس، والغالي والرخيص، في المنشط والمكره، ولا يكون الوفاء بهذه البيعة كاملاً إلا إذا كان هذا البذل والتضحية متضمناً كل ما يملك المؤمن من جهد

١- يعوزه: ينقصه

ووقت، فالمؤمن لا يمكن أن يكون لديه وقت فراغ يستطيع أن يبذله في سبيل دينه ولا يقوم ببذله يقول النبي ﷺ "لا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ" [رواه الترمذي، الحديث ٢٣٤] كما أن المؤمن لا يحل بدرة عرق يمكن أن يبذلها في طريق دعوته، يقول النبي ﷺ: "لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَلْقَ أَخَاهُ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ" [رواه الترمذي، من الحديث ١٧٥٦]. فالراحة بالنسبة للمؤمن شيئاً لا يطلبه في الأرض، وإنما عليه أن يتفانى في العمل للإسلام موقناً بأن راحته وهناءه في السماء حيث الجنة

ضرورة ملحة

واليوم والإسلام مُحارب بضراوة من أعدائه ومن بعض بنيه الجاهلين، تحتاج ساحات الدعوة إلى من يشمروا لحمل رايتها وتوصيلها إلى الناس، وكل هذا لا يتأتى إلا بجهد يبذله من عرفوا الحق والتزموا به، وهذا الجهد والعمل لهداية الناس وتبصيرهم بحقوق ربهم، ومقتضيات إيمانهم، وآداب دينهم، يعد من أفضل التضحيات، وأسمى القربات إلى الله، فعن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ. "فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ" [رواه البخاري، من الحديث ٢٧٨٧] نعم إن هداية الناس من الضلالات والانحراف إلى نور الهداية والصراط المستقيم جهد عظيم أفضل وأثمن عند الله من كل كنوز الأرض، فلا يسعى لمسلم حصيف أن يتخلى أو يفرط في هذا الجزاء العظيم والفضل الكبير فلا يخصص من قدراته وجهده

وإمكانياته وطاقاته ما يؤهله لنيل تلك المنن الربانية، وهو أمر ممكن للكثير من الراغبين في هذا الفضل تحقيقه بغير مشقة ولا عسر

أعلى الأوقات

والتضحية بالجهد غالباً ما يلازمها تضحية بالوقت، وحيث إن وقت الإنسان هو وعاء حياته، والحياة أعلى ما يملكه الإنسان، والذي يستهين بوقته لا يُعدُّ عند العقلاء إلا مستهينًا بحياته، ولا يُقدِّر قيمة الوقت إلا أصحاب الأهداف السامية بل ويعتبرونها جزءًا لا يتجزأ من رأس مالهم مما يجعلهم متمسكين به حريصين عليه أشد الحرص؛ لأنهم يعلمون أن الدقيقة التي تمر لن يمكنهم استرجاعها مهما بذلوا لاستعادتها، وهذا ما يؤكده القول المأثور[١] "كل يوم ينشق فجره ينادي في الخلق قائلاً ومنبّهاً يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلىٰ عملك شهيد، فتزود مني بعمل صالح فإني لا أعود إلى يوم القيامة". وإذا أدركنا قيمة الوقت وأنه مرادف للحياة بغير مبالغة، أدركنا أن من يضحي بوقته الذي يحتاجه المرء للعمل والتكسب والراحة والتمتع لا يقل عمن يضحي بحياته حين البأس على أرض المعركة، وبقدر ما يضحي يكون الأجر والثواب، وفي عصرنا حيث تنافس الناس على طلب الدنيا وجمع متاعها والتنعم بطيباتها، وانشغلت أوقاتهم في هذه الأمور، وقد يكون هذا الانشغال مباحًا إلا أنه يفوت عليهم العمل لدين الله الذي وعد الله عليه خير الجزاء كما يفوت عزة الإسلام وكرامة المسلمين ودعوة الناس إلى الخير وكلها مقاصد لا ينبغي لمسلم غيور على

١- هذا القول للحسن البصري

هذا الدين أو حريص على منازل الجنة ونعيمها أن يهملك في أعماله ومشكلاته وهمومه فلا يعطي للدعوة إلا ما يتبقى من أوقاته إن بقي منها شيء، وإنما ينبغي أن يخصص لها وقتًا مثلما يخصص وقتًا لطعامه وشرابه على الحد الأدنى، فكما لا يستغني المرء عن الطعام لإقامة حياته الدنيا لا يستغني عن الدين لينال الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1] فهل نبخل على الحياة الحقيقية والنعيم الأبدي بهذا الوقت الضئيل نضحي به ونقتطعه محتسبين الأجر والثواب وهو جزيل عظيم عند الله

تدرب على التضحية:

ينظر أكثر المسلمين إلى أولئك الذين يضحون بأرواحهم وأموالهم وجهودهم وأوقاتهم وراحتهم لنصرة الإسلام ورفع شأنه نظرة الإعجاب والاستحسان، ولكن هذه النظرة لن تقدم أو تؤخر في تقدم قافلة الإيمان، وإنما الذي يفيد ويؤثر أن نشارك العاملين الباذلين، ونضحي ببعض مما رزقنا الله به من نعمة الصحة والجهد والوقت، فإن الوفاء بيعتنا مع الله يستوجب من كل مسلم ومسلمة أن يأخذ نفسه بالعزم على البذل والتضحية بالعمل الذي يناسب قدراته ويلائم طاقاته، وبوقت يخصصه لذلك العمل وإن كان العمل والوقت قليلين، وذلك لأن استمرار العمل القليل مع الدوام والتخطيط الجيد لاستغلاله يتحول بعد مدة إلى عمل كبير، وأجر جزيل عند الله، وهكذا تستمر الدورة وتتضافر الجهود، وتتوالد صفوف وجزرات

---

[1] - من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت

حديدة تعمل وتصحي لتزيل وتمحو أشكال الانحراف والغواية ولتثبت وترسخ معالم الاستقامة والهداية، وبذلك أيضًا يتم التكافل المعنوي بين قدرات المجتمع المسلم وملكاته وطاقاته ، ويكون في التضحية ببعضها أو كلها دعمًا وسندًا للدعوة، وحسن استثمار لما وهب الله لنا من نعم، ووفاء لبيعتنا معه ﷺ

ولتكن بداية التدريب بالاشتراك في إقامة حفل أو معرض إسلامي، أو المساهمة في إعداد عقيقة أو غير ذلك، وتخصيص نصف ساعة يوميًا للمعاونة في الأعمال الدعوية أو المسجدية مما يتناسب مع قدراتنا وأوقاتنا من غير بأس ولا حرج

*****

طهر ورداء

ها قد أتى اليوم الذي يحتاه كل امرئ، وكثيرًا ما كان يغفل عنه ويناه، يقول الشاعر

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

يوم أن تطوى صفحة حياته بما سجَّل فيها من خير أو شر، وبما حطَّ من أعمال صالحة أو طالحة، تُطوى لتنتقل من مكان مألوف إلى مكان آخر يحدده ما سطّر بيديه فإن كان مقبولاً نال القبول، وإن كان فاسدًا مردولاً عاجله العقاب

موقفٌ لابد منه:

بعد أن تصعد الروح وتفارق الجسد، يبكي الأهل والأحباب إذ تيقنوا بحرهم عن إبقائه، وقدومه -لا محالة- على حساب ربه، فيسرعون بإحضار مَن يُغسِّله، فالمسلم لابد أن يلقى ربه طاهرًا، لأن الاتصال بالله يحتاج إلى طهارة، فكيف بمن سيقابله؟

وليعلم كلٌ منا أنه لا محالة سيمر بهذا الموقف، حيث سيجرد من كل ثيابه إلا من ساتر يستر العورة، وسيقوم الغاسل بكل ما كنت تقوم أنت به لنفسك، فسيزيل ما على بدنك من نجاسة، ثم يوضئك وضوءك للصلاة،ثم يغسلك ثلاثاً بالماء، ثم يحنطك ويضع عليك الطيب وذلك قبل لبس الكفن،كل ذلك وأنت لا حول لك ولا قوة، لا تستطيع حراكًا، ولا يمكنك إبداء رأيك فيما فُعِلَ بك، أين ذهبت قوتك؟ أين ذهبت إرادتك؟

لقد أصبحت اليوم وكأنك قطعة من لحم يقوم العاسل ومن معه بعمل اللازم تجاهها

فهل تذكرت يوماً وأنت تطف جسدك وتعتني بطافته أنك يوماً ما ستقف ذلك الموقف، فهلا أتممت استعدادك لهذا اليوم بالعمل الصالح والتقرب إلى الله

فلسفة التجرد:

تجريد المتوفى من ثيابه وتعريته أمر لازم لتغسيله، وهذا التجرد اللازم يلفتنا إلى أننا لن نخرج من الدنيا إلا مجردين من كل مظاهرها، ومن كل ما هئنا لجمعه من مال وملابس ومتاع أو غير ذلك. ولنعلم جميعاً أن متاع الدنيا إلى زوال، فكما أتينا إلى الدنيا عرايا سنخرج منها أيضا عرايا، وأن الأمر لم يتعد سوى أنه مجرد رحلة صغيرة قمنا بها في هذه الدنيا، وهذا ما يدلنا عليه حديث النبي ﷺ عندما قال "مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"[رواه الترمذي، من الحديث ٢٢٩٩]، ولذلك يجب علينا أن يستقر في وجداننا دائماً أن ما سنخرج به من هذه الدنيا ليس إلا عملنا الصالح، قال تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[1]

الستر تكريم.

إذا انتهى المغسل من تطيف الميت وتغسيله، سارع بإحضار الكفن؛ ليستر الميت، فإن الله حين شرع اللباس ما كان ذلك إلا تكريمًا منه لبني

١- من الآية ١٩٧ من سورة البقرة

آدم، يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1] وإذا كان الملبس للحي فيه تكريم، فإنه كذلك للميت، يقول الله ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً﴾[2] ولكن هذا الكفن مجرد ستر ليس فيه نوع رحرف أو بقش أو ريبة، وذلك أن الميت مقبل على الله، الذي أعلمنا مما يحبه ويرضاه من الريبة، قال الله تعالى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[3] وذلك أن حسن المظهر لا يعني شيئًا إذا قبح الجوهر، ولقد قال أحد الشعراء في هذا المعنى.

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى تجرد عريانًا وإن كان كاسيًا

نعم إن الريبة الحقيقية للمؤمن هي فيما يرتديه لهذا اللقاء من حلل التقوى والإخلاص.

فما يسعى لمؤمن أن يكون جمال مظهره ومظهره هو شغله الشاغل، وإنما عليه أن يكثر من ذكر ذلك اليوم الذي سيرتدي فيه الكفن، وليصرف همته وشغله إلى مطلوب الله منه، فإذا ما تم اللقاء وجد من ربه الحفاوة والترحيب.

*****

١- من الآية ٧٠ من سورة الإسراء
٢- من الآية ٢٦ من سورة الأعراف
٣- من الآية ٢٦ من سورة الأعراف